الفصل الخامس

مملكة كيليكيا الأرمنيّة

السلالة الرُّوبينيّة الحاكمة

كان غزو الأتراك السلاچقة لأرمينيا بين 1064 و 1071 م (انظر الفقرة 6 من الفصل الأول) ، قد أدّى إلى نزوح قسم من السكان الأرمن تجاه كيليكيا Cilicie ، الإقليم الذي كان متنازعاً عليه آنذاك بين البيزنطيين والأتراك . وعقب ذلك استطاع زعيمان أرمنيان ، هما روبين Roubèn وأوشين Ochin ، أن يؤسّسا حوالي عام 1080 م ، الأول في بارتزربرد Bartzerberd ، والثاني في لامبرون Lambron ، قلاعاً حصينة في كيليكيا العليا . وكان الأول جدّ الأسرة الروبينية الحاكمة ، أما الثاني فجدّ الأسرة الهيتومية الحاكمة .

ويلاحظ بالتالي ، أن حلول هؤلاء السكان المسيحيين المنتمين إلى طبقة الفلاحين الجبليين الأشداء ، بالإضافة إلى الإقطاعيين المحبّين للحرب ، بجوار سورية ، سوف يكون له عن قرب أكبر الفوائد لصالح الدول الصليبية ، التي أمسى أرمن كيليكيا حلفاءها الدائمين .

كانت الأسرة الروبينية هي التي أسّست الدولة الأرمنيّة في كيليكيا ، وجعل قسطنطين الأول Constantin I (حوالي 1092–1100 م) ابن روبين مقر إقامته في قاهكا Vahka (أي Fikhé حالياً) في سلسلة الجبال المحاذية لطوروس وتحالف مع بارونات الحملة الصليبية الأولى . واستطاع خَلَفه طوروس الأول Thoros I^er (1100–1129 م) أن ينتزع من البيزنطيين مدينتي سيس وعين زَرْبَى[1] في كيليكيا . كما انتزع منهم ليون الأول (1129–1137 م) شقيق طوروس ماميسترا (المصيصة) وأضنة وطَرَسوس ، أي باختصار كل ما تبقى من كيليكيا .

---

(1) ذكرها ياقوت في معجم البلدان (7 : 177) : بلد بالثغر من نواحي المصيصة .

لكن في عام 1137–1138 م تمكّن الإمبراطور البيزنطي جان كومنينوس من استعادة الإقليم ومحق الدولة الأرمنيّة الفتية وأسر زعماءها . وسُجن طوروس الثاني ابن ليون الأول طويلاً في بيزنطة ، ثم عام 1143 م تمكّن من الفرار وعاد إلى كيليكيا ليعمل على طرد البيزنطيين (1151 م) . وفي عام 1158 م غزا كيليكيا البيزنطيون مجدّداً بقيادة الإمبراطور مانويل كومنينوس ، فيما بقي طوروس الثاني (توفي 1168 م) معتصماً بالجبال يقاوم البيزنطيين . وأخيراً نجح مليح[1] (1169–1174 م) أخو طوروس بدحر البيزنطين من كيليكيا نهائياً (عام 1173 م) .

بعد هذه الصراعات شهدت إمارة كيليكيا الأرمنيّة عهد ازدهار ، قامت في خلاله بالتقارب مع العالم اللاتيني ، فتزوج الأمير روبين الثالث Roubèn III (1175–1187 م) من فرنجية هي إيزابيل دى تورون Isabelle de Toron . أما أخوه ليون الثاني الأكبر (1187–1219 م) فكان من أبرز حكام عصره ، استحصل من الإمبراطور هنري السادس ومن البابا سيليستان الثالث Célestin III على إقرار ارتفعت بموجبه إمارته إلى مصاف الممالك .

ثم أتى الكردينال كونراد فون ڤيتلسباخ Konrad von Wittelsbach لتتويجه ملكاً على أرمينيا في طَرَسوس ، وكان ذلك إجراءً رمزياً أفضى إلى تحرير أرمينيا نهائياً من جذب بيزنطة إياها وإلحاقها بمجموعة الشرق اللاتيني (6 كانون الثاني 1198 أو 1199 م ؟) . ولقد تزوج ليون الثاني على التوالي أميرتين فرنجيتين ، هما إيزابيل من آل حكام أنطاكية وسيبيل من آل لوزينيان .

لم تمنع ميول ليون الثاني إلى الفرنجة من دخوله في شقاق مع أمير أنطاكية بوهيمون الثالث حول حصن گاستون Gaston الحدودي (بغراس) عام 1194 م . غير أن الصلح بينهما تم توثيقه بزواج الأميرة آليكس Alix ابنة أخ ليون الثاني من ريمون Raymond الابن البكر لبوهيمون الثالث (1195 م) . أجاز هذا الزواج للملك ليون الثاني بالتالي التدخّل في شؤون إمارة أنطاكية عندما حلّ نزاع بين مطالبَيْن بحكمها هما بوهيمون الرابع وريمون روبين Raymond-Roubèn ، لكون الأخير ابن ريمون وأليكس وبالتالي حفيد أخ العاهل الأرمني . فانحاز ليون إلى حفيد أخيه ، ونجح لبرهة قصيرة (1216–1219 م) في تنصيبه أميراً لأنطاكية .

---

(1) ورد الاسم : Mleh ، ويسميه المؤرخون المسلمون المعاصرون للفترة : مليح بن لاون .

السلالة الهيتومية الحاكمة

بوفاة ليون الثاني (1219 م) آل التاج إلى ابنته زابيل Zabel التي تزوّجت من فيليب أحد أبناء الأسرة الأنطاكية ، لكن لمّا راح هذا يعمد إلى فَرْنَجَة البلاد برعونة عمد البارونات الأرمن إلى إقصائه عن الحكم . ثم قام زعيمهم قسطنطين سيد لامبرون بتزويج زابيل من ابنه هيتوم الأول Héthoum I^er ، الذي صار بذلك مؤسس السلالة الحاكمة المعروفة حسب اسمه بالسلالة الهيتوميّة (1226 م) .

كان هيتوم الأول (1226–1269 م) واحداً من أنبه الحكام ، كما كان واحداً من أكبر سياسيي عصر الحروب الصليبية . ورغم أنه توصل إلى السلطة عبر انتفاضة أرمنية ضد عملية الفَرْنَجَة ، فإنه سرعان ما عاد فركن إلى سياسة موالية للفرنجة . وقدّم ابنته زوجة لأمير أنطاكية وطرابلس بوهيمون السادس . وبين هاتين العائلتين حلّ تحالف محدود مكان التنافس والتنافر القديمين .

كان لهيتوم ، بشكل خاص ، القدر الكافي من بُعد النظر ليُدرك مدى أهمية العنصر المغولي في الصراع الدائرة رحاه بين الصليب والهلال . وصاقب في ذلك العصر مجيء المغول التابعين لجنكيز خان في طريقهم لغزو إيران . ما لبث هيتوم أن أعلن نفسه تابعاً لهم ، وأوفد إليهم سفارة يرأسها أخوه ، القائد العام سمباط Sembat (عام 1247 م) ، ثم توجّه بنفسه إلى منغوليا ليقدّم فروض الولاء إلى خان المغول الأكبر منگو[1] Mongka (1254 م) . ولقد تقبّل الخان هذا الولاء وأعلن دخول مملكة كيليكيا الأرمنيّة تحت حمايته .

بعد ذلك بقليل قدم هولاگو خان شقيق منگو ليحكم إيران ، وبعدما قوّض الخلافة العباسية في بغداد (1258 م) مضى يغزو كما رأينا (فقرة 23 الفصل الثاني) سورية الداخلية من أيدي المسلمين . فانخرط الملك هيتوم في صفوف جيش المغول ودخل في ركابهم إلى حلب ودمشق ، حيث قام بتحويل العديد من المساجد إلى كنائس (عام 1260 م) . على أن هزيمة المغول أمام المماليك في العام ذاته 1260 م تركت العاهل الأرمني طُعمة لنقمة الظافرين ، فانطلق السّلطان المملوكي الظاهر بيبرس يدكّ مدن كيليكيا (1266 م) وفرض على الأرمن صلحاً مُذلاً .

---

(1) منگو خان المغول بين 1251–1259 م ، شقيق هولاگو خان وقُبلاي خان ، الذي خلفه في حكم الإمبراطورية المغولية .

تحت وطأة هذه المذلّة مضى الملك ليون الثالث Léon III (1269–1289 م) ابن هيتوم وخليفته يلتمس العون لمواجهة المماليك من خان فارس الجديد أباقا خان (1269 م) . لكنه لم يفلح في كبح المماليك عن الإغارة على كيليكيا (1274–1275 م) . أما هيتوم الثاني الذي تلاه في الحكم (1289–1301 م) ، فقد وجد نفسه في مواجهة المصاعب ذاتها ، ومضى هو الآخر يستجدي الحماية من خان فارس (1295 م) . ولقد أرسل هذا الخان بالواقع ، وهو غازان ، إلى سورية جيشاً هزم المماليك على حمص (22 كانون الأول 1299 م) ، ولكن هذا الجيش سرعان ما تراجع منسحباً . وفضلاً عن ذلك لم يعد أمام مغول فارس ، الذين اعتنقوا الإسلام لتوّهم ، نفس الدواعي للدفاع عن المملكة الأرمنيّة .

وإذ انقطعت الحماية المغولية عنه ، لجأ ملك أرمينيا أوشين Ochin (1308–1320 م) إلى زيادة التقارب مع اللاتين كما لم يسبق من قبل . وكان من جهة أخرى قد تزوّج ابنة ملك قبرص هوك الثالث Hugues III . وفي عهد ابنه ليون الخامس (1320–1341 م) ، استؤنفت الغارات المملوكية (اقتحام ميناء أياس ، أو لاياسّو Lajazzo الأرمني عام 1322 م) .

حكام أرمينيا من آل لوزينيان

لمّا كانت السلالة الهيتومية الحاكمة قد انقرضت في عام 1341 م ، فقد آل عرش أرمينيا ، عن طريق لعبة تحالف الأسر ، إلى آل لوزينيان أصحاب قبرص في شخص گي دى لوزينيان Guy de Lusignan (1342–1344 م) . رغب گي في أن يفرض على رعاياه التبعية الدينية لكنيسة روما ، فما كان من البارونات الأرمن ، المتعصبين بشدة لكنيستهم القومية (ذات العقيدة الوحدانية بالمذهب الگريگوري) إلا أن بادروا إلى عزله عن الحكم (في 17 تشرين الثاني 1344 م) .

على الأثر قاموا بتسمية أحدهم ملكاً وهو قسطنطين الرابع ، ورغم أنه رقي إلى العرش إثر ردّة فعل مضادة للفرنجة ، فقد حرص قسطنطين الرابع (1344–1363 م) كأسلافه على محالفة الفرنجة في مواجهة المماليك . وفي الواقع لم يَن هؤلاء المماليك عن متابعة هجماتهم ، منتزعين من الأرمن ميناء أياس Ayas (لاياسّو Lajazzo) (25 أيار 1347 م) ، ثم مدينتي أضنة وطَرَسوس (1359 م) .

وهكذا ضاع السهل الكيليكي ، ولم يتبقّ للمملكة الأرمنيّة المطوّقة من جميع الجهات سوى مساحة ضئيلة في الجبل ، حول عاصمتها سيس . وعلى أمل إثارة الدعوة إلى حملة صليبية ، استدعى البارونات الأرمن إلى العرش أميراً قبرصياً ، هو ليون[1] السادس دى لوزينيان (1374 م) . ومنذ وصوله وجد ليون نفسه محاصراً في سيس من قبل المماليك . وبعد استبسال ودفاع بطولي رضخ فسلّم المدينة (في 13 نيسان 1375 م) .

وهكذا اختتمت حياة أرمينيا الكيليكيّة . أما ليون السادس ، فلمّا أطلقه المماليك من سجنه بعد سبعة أعوام ، استقرّ في فرنسا . وكانت وفاة آخر ملوك أرمينيا في باريس في 29 تشرين الثاني 1393 م .

فَرْنَجَة أنظمة الحكم الأرمنيّة

إن قُرب الدول الصليبية ونفوذها القوي أثّرا بشكل ملموس في أنظمة حكم الدولة الأرمنيّة في كيليكيا . وإن تتويج ليون الثاني ملكاً (تاگاڤور[2] *thagavor*) على يدي مبعوث بابوي من روما أدّى إلى إدخال أرمينيا في نطاق ممالك اللاتين .

حذا بلاط سيس[3] الملكي من حيث الأنظمة حذو بلاطي أنطاكية وعكّا . كما تمّ ترجمة «دواوين أنطاكية» *les Assises d'Antioche* إلى الأرمنيّة على يد «القائد العام» سمباط (نحو 1254–1265 م) . وكانت مراسيم «السّجل الملكي» *cartulaire* تدوّن في آن واحد باللغتين الأرمنيّة واللاتينية أو الفرنسية .

وعلى نسق الملكية ، كذلك حذت الإقطاعية الأرمنيّة حذو الهيئة الفرنجية . وتشبّه الإقطاعيون الأرمن (ناخارارك *nakharark'*) بالبارونات الفرنسيين . حتى أن تنظيم الفروسية نفسه أُدخل إلى بلاط سيس . وعلاوة على ما تقدم ، بقي التزاوج بين الأسرة الحاكمة لأرمينيا وبين السلالات الحاكمة للقدس وأنطاكية – طرابلس وقبرص ، كما رأينا ، مستمراً على قدم وساق .

---

(1) تسمى العديد من ملوك الأرمن باسم ليون ، ولفظه في الأرمنية «ليڤون» .

(2) هذه العبارة الأرمنية تعني الملك ، وقد عرفها المؤرخون العرب بلفظ «تقفور» ، في أكثر التواريخ المعاصرة لممالك الأرمن المجاورة لبيزنطة .

(3) سيس Sis مدينة في كيليكيا ، أضحت عاصمة لمملكة أرمينيا الصغرى عام 1186 م .

كانت العقبة الوحيدة الواقفة في وجه هذا الائتلاف الضيّق هي الهوّة اللاّهوتية ما بين العقيدة الرومانية والاعتقاد الوحداني الأرمني . ومع ذلك ، بدا عدّة من الأحبار الأرمن مناصرين للتقارب مع روما ، ومن هؤلاء نرسيس الرابع شنورالي Nersès IV Chnorhali ، البطريرك الذي تولى من عام 1166 إلى 1173 م ، والذي كان واحد من أكبر كتّاب عصره ، والمطران نرسيس دى لامبرون Nersès de Lambron (توفي 1198 م) .

ولقد قام أحد أفراد الأسرة الملكية الأرمنيّة ، وهو هيتوم ، الذي يعرف بهايتون Hayton الراهب (توفي بعد عام 1314 م) ، قام باعتناق العقيدة الرومانية الكاثوليكية ، ودوّن بالفرنسية لدى كهنة قبرص كتابه «زهرة تواريخ أرض المشرق» *la Flor des estoires de la terre d'Orient* .

ونضيف هنا ، أنه في غضون المئتين والثلاثة وثمانين عاماً التي عاشتها الدولة الأرمنيّة في كيليكيا (1092-1375 م) ، لعبت هذه الدولة دوراً اقتصادياً لا يمكن إغفاله ، ولقد كان ميناء أياس (لاياسّو) واحداً من المنافذ الرئيسية للتجارة الآسيوية . ومنذ عام 1201 م ، شرع الجنويون بتأسيس وكالاتهم التجارية في هذا الميناء . وقد أدّى سقوط أنطاكية (1268 م) ثم سقوط عكّا (1291 م) ، إلى مضاعفة أهمية هذا الميناء عشرات المرات ، فقد أضحى السوق الكبرى الوحيدة المتبقية في القارّة بأيدي المسيحيين . كانت الأساطيل الجنوية والبندقية تفد إلى ذلك الميناء لتُشحن بالتوابل ، والأحجار الكريمة ، والمنسوجات القطنية والحرائر من آسيا الإسلامية ، ومن الهند والشرق الأقصى .

ولكن هذا الازدهار كله لم يكن من ناحية أخرى بمنأى عن المخاطر ، فلمّا انثال مماليك مصر يدمّرون عام 1375 م المملكة الأرمنيّة في كيليكيا ، كما كانوا من قبل قد دمّروا عام 1291 م البقايا الأخيرة من مملكة القدس الفرنجية ؛ فإن الغاية من ذلك كانت ، دون ريب ، تعزيز الانتصار الحاسم للحرب الإسلامية المقدّسة (الجهاد) على الحركة الصليبية المسيحية . ولكن لا ننسينّ أيضاً أنه كان يكمن وراء ذلك أيضاً إلى حد بالغ الرغبة في استقطاب الاحتكار القارّي لتجارة المشرق نحو ميناء الإسكندرية ، مروراً فوق أنقاض ميناء أياس ، مثله في ذلك مثل عكّا .

* * *